الفرق بين الفرق

تأليف

صدر الإسلام ، الأصولى ، العالم المتفنن

لقاهر بن طاهر بن محمد : البغدادى ، الإسفرائينى ، التميمى

المتوفى فى عام ٤٢٩هـ — ١٠٣٧م

حقق أصوله ، وفصله ، وضبط مشكله ، وعلق حواشيه

محمد محيى الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه

وجميع حق إعادة الطبع محفوظ له

يطلب من ناشره

مكتبة محمد على صبيح وأولاده ، بميدان الأزهر بمصر

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المتقين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله الذى بعثه الله رحمة وهُدًى وبُشْرى للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ثم على علماء أمته العاملين ، وعلى كل مَنْ نهج طريقه إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن عقيدة الإسلام سَهْلَة يسيرة لا تعقيد فيها ، وهى التى توافق الفِطْرَة السليمة التى فطر الله الناس عليها وتتقبَّلُها العقولُ الصافية من دَخَل التقليد والعَصَبِيَّة ، وكلمة الشهادة « أشهد أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسولُ الله » هى المعيار الذى جعله الله تعالى ورسولُه صلى الله عليه وسلم دليلَ هذه العقيدة ، ومن معناها الإيمانُ بأن لهذا الكون خالقا حكيما قديرا مدبرا ، وأنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه ليس كمثله شيء ، وأنه يصطفى من عباده مَنْ يشاء فيرسلهم إلى الناس يبلّغونهم ويبشرونهم وينذرونهم ، والإيمانُ بأن محمدَ بن عبد الله القرشىَّ الهاشمىَّ رَسُولٌ أرسله الله على حين فترة من الرسُل ، وأنزل عليه كتابا أحكمت آياته ثم فُصِّلَتْ ، وأنه أدَّى الأمانة ، وبلَّغَ الرسالة ، وصَبَر وصابَرَ حتى صارت كلمة الله هى العُلْيا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وأىُّ فطرة سليمة لا تشعر بأن لهذا الكون مدبرا حكيما ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكلُّ إنسان مشوقٌ بطبيعته إلى الخضوع لذلك والإذعان به ثم إلى إدراكه فى يُسْر وسُهولة إلا أن تنتكس فطرتُه ، أو يُران على قلبه أو تجتاله الشياطين ، أوَ ليس كلُّ أحدٍ يفكر فى شأن من شؤونه ثم يدبّر له

أسبابه ودواعيه ، ثم يَسْلُكَ طريقه إليه ، ثم لا يَدَّخر وُسْعاً فى رُكوب كل صعب وذَلُولٍ ليبلغ ما يريد وهو يعتقد أنه لم يترك وسيلةً إلا دبَّرها واتخذها ، ثم إذا الأمرُ يجرى ـ رغم أنفِه ـ على غير ما يُريد ، وعلى خلاف ما قصد ، وعلى خلاف ما ظن أنه واصِلٌ إليه ، وعلى خلاف ما اعتقد أن هذه الوسائلَ وهذه الطريقَ موصِّلَة إليه ؟ فإذا هو ـ بعد أن جرَى هذا الشوط الفسيح ـ يعلم أن ثمة قدرة فوق قدرته ، وأن علماً فوق علمه ، وأن تدبيراً فوق تدبيره ، وأن تقديراً فوق تقديره ، وأن هذه القدرة وهذا العلم وهذا التدبير وهذا التقدير هو الذى جرت الأمور على ما أراد ؟

وقد دخَلَ فى الإسلام قومٌ خلَصَت قلوبهم من أدران التقليد والعصبية ، وصفت نفوسُهم لما يدعوهم إليه رسولُ الإيمان ، واطمأنت خَوَالجهم إلى أمانة هذا الرسول الكريم وصِدْقِه ؛ فمضُوا على ما دعاهم إليه بالتوكل عليه والتمسك منه بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وكره أحدهم الشرك وما كان يعبد آباؤهم كما يكره أن يُلْقَى فى النار ، ورأوا رسول الله وصَحِبُوه فأحَبُّوه فوق ما يحبون آباءهم وأبناءهم ، وفدَوه بالأنفس والأموال ، حتى كان أحدهم يستعذِبُ أن يعذَّب بأشد أنواع العذاب إذا كان فى هذا العذاب نجاة للرسول الكريم من أن تشُوكه شوكة ، ونفعهم الله بذلك كله ، وجزاهم عليه خير ما يجزى الصالحين .

ودخل فى الإسلام ـ بجانب هؤلاء ـ أصناف من الناس ، أولهم جماعة من العرب ساقَهُم إلى الإسلام ـ حين جاء فتح الله والنصر ـ دخولُ قومهم فيه ، فدخلوه تقليداً وانسياقاً مع الجمهور ، ولم تكتحل أعينهم برؤية صاحب الرسالة ، ولا انشرحت صدورهم بسماع تعاليمه منه ، ولا صفت قلوبهم من آثار جاهليتهم ولا نظفت من أدْرَانها ، فكان سواء لديهم انتصرت الدعوة الإسلامية أم لم تنتصر ، وثانيهم جماعة من عامَّةِ أهل الأديان الأخرى ـ وعلى الأخص اليهودية

والمجوسية ـ دخلوا فى هذا الدين أيام الفتوح التى أخضعت الدولتين الكبيرتين اليونانية والفارسية ، فرارا من حكم الإسلام على من يبقى على دينه منهم ، ولم تخالط بشاشة هذا الدين قلوبهم ، ولا اقتلعت جذور الحقد والضغينة من قلوبهم ، ولا استأصلت من أنفسهم أعلاقا تشدهم إلى دينهم القديم ، فهم يشتاقونه وتتقطع أنفسهم حسرات عليه ، ويتمنون أن يعودوا إليه ، وثالثهم جماعة من دهاة أهل الأديان الأخرى وذوى الخب والمكر منهم ـ وعلى الأخص اليهودية والمجوسية أيضاً ـ تظاهروا بالدخول فى الدين الجديد وهم يضمرون فى أنفسهم الكيد والمكر والخديعة ، ويتحينون الفرصة للانقضاض على هذا الدين الذى بسط سلطانه على رقعة الأرض المعروفة يومذاك ، ويعملون فى الخفاء لإيجاد هذه الفرصة إن لم تواتهم من تلقاء نفسها ، ويهيئون أذهان الطائفتين السابقتين وقلوبهم وجهودهم للقيام معهم فيما يعتزمون القيام به ، ومازالون يفتلون فى الذروة والغارب لتواتيهم الظروف وتتهيأ لهم الفرص ، فيلبسون للناس مسوح الصلاح تارة ، ومسوح الحرص على تعاليم الدين تارة أخرى ، ثم يلبسون لهم مسوح محبة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطاهرين حين وجدوا من آل بيت الرسول قوما يذكرون اهتضام حقوقهم وانصراف بعض الناس عنهم ، وينفث هؤلاء سمومهم ، فيؤولون فى تعاليم الشريعة ، ويدخلون فيها ما ليس منها ، ويضعون على الرسول أحاديث تؤيد دعاويهم ، ويطالبون الأغرار ـ وهم الطائفتان الأولى والثانية ـ بالقيام لنصرة الدين أو لنصرة آل الرسول الذى جاء بهذا الدين ، هذا فيما نعتقد ـ هو الأصل الأصيل فى الفرقة التى حدثت فى الإسلام ولم يمض طرى لم يكتمل عليه قرن واحد ، وهو السر فى عجز المؤمنين الخالصى الإسلام عن رد كيد هؤلاء الماكرين إلى نحورهم ، ذلك بأنهم أثاروا جمهور الناس وكثرتهم ، وبعثوا فى نفوسهم الحماس لما يدعونهم إليه ، وثورة الجماهير ـ كما يقولون ـ مجنونة لا عقل لها .

ويروى الترمذي في سننه حديثاً في تفرق هـذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، فيقف العلماء الذين صنفوا في علم الـكلام أو في « الملل والنحل » من هذا الحديث ثلاثة مواقف ، فأما أحدها فألاّ يتعرضوا له بنفي ولا إثبات ، ومن هؤلاء شيخ أهل السنة والجماعة الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الذي صنف كتابه « مقالات الإسلاميين ، واختلاف المصلين » وقد أخرجناه إخراجا دقيقا في عام ١٣٦٩ ـ الموافق عام ١٩٥٠ ، ومنهم الإمام المحقق أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين ، فخر الدين الرازي ، المعروف بابن الخطيب ، الفقيه الشافعي ، المتوفى في سنة ست وستمائة من الهجرة ، وهو صاحب كتاب « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » ؛ فقد ألف كلّ منهما كتابه من غير أن يعرض لهذا الحديث ، وأما الثاني فجماعة تعرضوا له ولم يصححوه فلم يأخذوا به ، ومن هذا الفريق ابن حزم الفقيه الظاهريّ صاحب كتاب « الفصل ، في الملل والنحل » فقد أعلن عن عدم صحة هذا الحديث ، بل حكم بضعفه ، وأما الثالث فقد تعرض لهذا الحديث وأخذ به وحاول أن يحصر الفرق التي نجمت تحت ظلال الإسلام في ثلاث وسبعين فرقة إحداهن ناجية وهي أهل السنة والجماعة ، ومن هذا الفريق الإمام المتـكلم النظار أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » الذي نقدم له بهذا الحديث ، ومنهم الإمام الحجة أبو المظفر الإسفرائيني صاحب كتاب « التبصير في الدين » الذي يحذو فيه حَذْوَ أبي منصور البغدادي في تبويبه وتقسيمه ، فلا يكاد يخالفه ، ومنهم أبو المعالي محمد الحسيني العلوي صاحب كتاب « بيان الأديان » الذي أخرجه الدكتور يحيى الخشاب ونشره في مجلة كلية الآداب (المجلد الأول ، من العدد التاسع عشر) ومنهم القاضي عضد الدين عبد الرحمن ابن أحمد الأيجي المتوفى في عام ٧٥٦ من الهجرة ؛ فقد صدر عقيدته التي اشتهرت باسم « العقائد العضدية » نسبة إليه بهذا الحديث وشرح في كتابه هذا مقالات الفرقة الناجية من هذه الفرق الثلاث والسبعين .

والحق أن أصول الفرق لا يصل إلى هـذا العدد ، بل إنه لا يبلغ نصفه ولا رُبعه ، وأن فروع الفرق يختلف العلماء في تفريعها، وأنت في حَيْرة حين تأخذ في العدّ ، بين أن تعتبر في عَدِّك الفرق أصولها أو فروعها ، وإذا استقر رأيك على اعتبار الفروع فإلى أيّ حدٍّ من التفريع أنت آخذ في اعتبارك ، وفي الحقّ أنه - على فرض صحة الحديث - لا ينحصر الافتراق فيما كان في العصور الأولى ، ومن قبل أن يدوّنَ هؤلاء العلماء الأعلام مصنفاتهم ، بل لا يزال الأمر يسير على المنهج الذى سار عليه أوّلَ الأمر ، تكون الفرقة واحدة ثم يكون من رجالها أثنان أو أكثر يبتدعون في مقالتهم شيئا لم يكن عليه أسلافهم فيصبح كل واحد منهم فرقة منفصلة عن قُدَامَاها في كل ما كانوا ينتحلون أو في بعضه ، ويجدُّ في العصر بعد العصر مبتدعة يبتدعون ما لم يكن عليه أحد من أهل الفرق الأولى ، من أجل ذلك كله رأينا أن الأخذ بهذا الحديث على ظاهره ومحاولة إيجاد هذا العدد من الفرق من أهل القرون الثلاثة الأولى التى جاء في أعقابها هؤلاء المؤلفون قصورٌ وتقصير وقصر نظر ، فإن حديث الترمذى يتحدث عن افتراق أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، فيجب أن يُتَحَدَّث في كل عصر عن الفرق التى نَجَمَتْ في هذه الأمة من أول أمرها إلى الوقت الذى يتحدث فيه المتحدث ، ولا عليه إن كان العدد قد بلغ ما جاء في الحديث أو لم يبلغ ، ونحن نجزم أنه إذا كان الحديث صحيحا ، وأن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قد قاله ، فلا بدَّ أنه كائن على الوجه الذى أراده صلى الله عليه وسلم ، لأنه صادق في كل ما يقوله : لأنه لا ينطق عن هوًى ، ولا يلقى كلامه إلقاء غير مُبَالٍ بما يكون من بعد ، والله تعالى يؤيده ، ومن تأييده وقوعُ الأمر في واقع الناس على وَفْقِ ما أخبر به .

وهذا كتاب « الفرق بين الفرق » أقدمه لقراء العربية ، بعد أن قدمت لهم منذ قريب من خمسة عشر عاما كتاب أبي الحسن الأشعرى « مقالات

الإسلاميين واختلاف المصلين » ومما لا رَيْبَ فيه أن كتاب « الفرق بين الفرق » من خير ما ألف فى هذا الموضوع : حُسْنَ ضبطٍ ، واستيعاب بحث ، و إتقان تبويب ، ودِقَّةَ عَرْض ، وقد عُنِيتُ بالترجمة للأعلام التى وردت فيه ترجمات مختصرة ، ودللت على مراجع هذه الترجمات ليستزيد من أراد الاستزادة ، كما دللت على المراجع التى تحدثت عن الفرق التى عرض لها البغدادى لنفس السبب ، ثم دققت فى تحقيق النص وضبط ألفاظ الكتاب المشتبهة وأعلامه ، ونفيت عنه كثيراً من الخطأ الذى وقع فى طبعتيه السابقتين ، أخص منهما طبعته الأولى التى نشرت فى دار المعارف فى عام ١٩١٠ فإنها مليئة بالأخطاء بحيث لا يطمئن قارىء إلى الرجوع إليها ، وقد انتفعت كثيراً بالطبعة الثانية التى اضطلع بالإشراف عليها صديقنا المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله تعالى ، رغم أننى خالفته فى تحقيق كثير من العبارات .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ المسئول أن ينفع قراء العربية بهذا العمل ، وأن ينفعني بدعوات صالحات من هؤلاء القراء حين يجدون فى عملى هذا ما جَعَلَ الفائدة منه دانية القُطُوف قريبة الجَنَى .

ربنا عليك توكلنا ، و إليك أنَبْنَا ، و إليك المصير ؟

كتبه المعتز بالله تعالى

محمد محيي الدين عبد الحميد